

## الباب الرابع

### في الفرق بين الصبر، والتصبر، والاصطبار، والمصابرة

الفرق بين هذه الأسماء، بحسب حال العبد في نفسه، وحاله مع غيره، فإن حبس نفسه ومنعها عن إجابة داعي ما لا يحسن إن كان خُلِقَ له وملكة سُمِّي صبراً.

وإن كان يتكلف وتمرن وتجرع لمرارته سُمِّي تصبراً، كما يدل عليه هذا البناء لغة، فإنه موضوع للتكلف كالتحلم، والتشجع، والتكرم، والتحمل، ونحوها وإذا تكلفه العبد واستدعاه صار سجية له كما في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «ومن يتصبر يصبره الله». وكذلك العبد يتكلف التعفف حتى يصير التعفف له سجية كذلك سائر الأخلاق، وهي مسألة اختلف فيها الناس هل يمكن اكتساب واحد منها؟ أو التخلق لا يصير خلقاً ابداً؟ كما قال الشاعر:

يُراد من القلب نسيانكم وتأبى الطباع على الشاغل  
وقال آخر:

يا أيها المُتَحَلِّي غير شيمته إن الشُخْلُقَ يأتي دونه الخُلُقُ  
وقال آخر: فقبح التطبع شيمة المطبوع.

قالوا: وقد فرغ الله سبحانه من الخلق والخلق والرزق والأجل، وقالت طائفة أخرى: بل يمكن اكتساب الخلق كما يكتب العقل والحلم والوجود والسخاء. والشجاعة والوجود شاهد بذلك.

قالوا: والمزاوالت تعطي الملكات، ومعنى هذا: أن من زاول شيئاً واعتاده وتمرن عليه صار ملكة له وسجية وطبيعة.

قالوا: والعوائد تنقل الطباع فلا يزال العبد يتكلف التصبر حتى يصير

الصبر له سجية كما أنه لا يزال يتكلف الحلم والوقار والسكينة والثبات حتى تصير له أخلاقاً بمنزلة الطباع.

قالوا: وقد جعل الله سبحانه في الإنسان قوة القبول والتعلم فنقل الطباع عن مقتضياتها غير مستحيل غير أن هذا الانتقال قد يكون ضعيفاً فيعود العبد إلى طبيعه بأدنى باعث وقد يكون قوياً، ولكن لم ينقل الطبع فقد يعود إلى طبيعه إذا قوي الباعث واشتد وقد يستحكم الانتقال بحيث يتحدث صاحبه طبعاً ثانياً، فهذا لا يكاد يعود إلى طبيعه الذي انتقل عنه.

وأما الاصطبار: فهو أبلغ من التصبر فإنه افتعال للتصير بمنزلة الاكتساب فالتصبر مبدأ الاصطبار كما أن التكسب مقدمة الاكتساب فلا يزال التصبر يتكرر حتى يصير اصطباراً.

وأما المصابرة: فهي مقاومة الخصم في ميدان الصبر فإنها مفاعلة تستدعي وقوعها بين اثنين كالمشائمة والمضاربة، قال الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (آل عمران: ٢٠٠) فأمرهم بالصبر، وهو حال الصابر في نفسه والمصابرة، وهي حالة في الصبر مع خصمه، والمرابطة: وهي الثبات واللزوم، والإقامة على الصبر والمصابرة، فقد يصبر العبد ولا يصابر وقد يصابر ولا يرباط وقد يصبر ويصابر ويرباط من غير تعبد بالتقوى فأخبر سبحانه أن ملاك ذلك كله التقوى وأن الفلاح موقوف عليها فقال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ فالمرابطة كما أنها لزوم الشجر الذي يخاف هجوم العدو منه في الظاهر ففي لزوم ثغر القلب لئلا يدخل منه الهوى والشيطان فيزيله عن سلكه.